والعجيب أن العبد كلما توغل فى الهداية ازداد نوراً على نور ، كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال]

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور] يعني : للعبرة والعظة مثل المثل السابق لنوره تعالى ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور]

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾

بدأت الآية بالجار والمجرور ﴿ فِي بُيُوتٍ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النور] ولا بُدَّ أن نبحث له عن متعلق ، فالمعنى : هذا النور الذى سبق الحديث عنه فى بيوت أذن الله أن تُرفع . والبيت : هو ما أُعدَّ للبيتوتة ، بل لمعيشة الحياة الثابتة ، وإليه يأوى الإنسان بعد عناء اليوم وطوافه فى مناكب الأرض ، والبيت على أية صورة هو مكان الإنسان الخاص الذى يعزله عن المجتمع العام ، ويجعل له خصوصية فى ذاته ، وإلا فالإنسان لا يرضى أن يعيش فى ساحة عامة مع غيره من الناس .

وهذه الخصوصية فى البيوت يتفاوت فيها الناس وتتسامى حسْب إمكاناتهم ، وكل إنسان يريد أنْ يتحيَّز إلى مكان خاص به ؛ لأن التحيُّز أمر مطلوب فى النفس البشرية : الأسرة تريد أن تتحيز عن المجتمع العام ، والأفراد داخل الأسرة يريدون أن يتحيزوا أيضاً ، كل إلى حجرة تخصه ، وكذلك الأمر فى اللباس ، ذلك لأن لكل واحد منا

مساتير بينه وبين نفسه ، لا يحب أن يطلع عليها أحد .

وقد اتخذ الله له بيتاً فى الأرض ، هو أول بيت وُضع للناس ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا .. (٩٦) ﴾ [آل عمران]

وهذا هو بيت الله باختيار الله ، ثم تعددتْ بيوت الله التى اختارها خَلْق الله ، فكما اتخذتم لأنفسكم بيوتاً اتخذ الله لنفسه بيوتاً ﴿ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. (٣٦) ﴾ [النور] وأنتم جميعاً عباد الله وعيال الله ، وسوف تجدون الراحة فى بيته تعالى كما تجدون الراحة فى بيوتكم ، مع الفارق بين الراحة فى بيتك والراحة فى بيت الله .

الراحة فى بيوتكم راحة حسِّية بدنية فى صالون مريح أو مطبخ ملىء بالطعام ، أمّا فى بيت الله فالراحة معنوية قيمية ؛ لأن ربك - عز وجل - غيْبٌ فيريحك أيضاً بالغيب .

لذلك كان النبى ﷺ كلما حزبه أمر يقوم إلى الصلاة[1] ليُلقى بأحماله على ربه . وماذا تقول فى صنعة تُعرض على صانعها مرة واحدة كل يوم ، أيبقى بها عطل أو فساد ؟ فما بالك إنْ عُرِضَتْ على صانعها خمس مرات فى اليوم والليلة ؟

فربُّكَ يدعوك إلى بيته ليريحك ، وليحمل عنك همومك ، ويصلح ما فسد فيك ، ويفتح لك أبواب الفرج . إذن : فنور على نور هذه لا تكون إلا فى بيوت الله التى أذن سبحانه أن تُرفعَ بالذكر وبالطاعات وترفع عما يحل فى الأماكن الأخرى وتعظم .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

فالبيوت كلها لها مستوى واحد ، لكن ترفع بيوت عن بيوت وتُعلَّى وقد رُفعَتْ بيوت الله بالطاعة والعبادة ، فالمسجد مكان للعبادة لا يُعصَى الله فيه أبداً على خلاف البيوت والأماكن الأخرى ، فعظَّم الله بيوته أن يُعْصَى فيها ، وعظَّم روادها أن يشتغلوا فيها بسفاسف الأمور الحياتية الدنيوية ، فعليك أن تترك الدنيا على باب المسجد كما تترك الحذاء .

لذلك نهى الإسلام أن نعقد صفقة فى بيت الله ، أو حتى ننشد فيه الضالة ؛ لأن الصفقة التى تُعقَد فى بيت الله خاسرة بائرة ، والضالة التى ينشدها صاحبها فيه لا تُردُّ عليه ، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول لمن يفعل هذا بالمسجد : « لا ردها الله عليك »[(1)] .

وإنْ جعل الله الأرض كلها لأمة محمد ﷺ مسجداً وطهوراً ، لكن فَرْقٌ بين الصلاة فى المسجد والصلاة فى أىِّ مكان آخر ، المسجد خُصِّص للعبادة ، ولا نذكر فيه إلا الله ، أمّا الأماكن الأخرى فتصلح للصلاة ، وأيضاً لمزاولة أمور الدنيا .

وإلا ، فكيف تعيش كل وقتك لأمور الدنيا على مدار اليوم والليلة ، ثم تستكثر على ربك هذه الدقائق التى تؤدى فيها فَرْض الله عليك فتجرجر الدنيا معك حتى فى بيت الله ؟ ألا تعلم أن بيوت الله ما جُعلت إلا لعبادة الله ؟ لا بد للمؤمن أن يترك دُنْياه خارج المسجد ، وأن ينوى الاعتكاف على عبادة ربه والمداومة على ذِكْره فى بيته ، فلا يليق بك أن تكون فى بيت الله وتنشغل بغيره .

فإن التزمتَ بآداب المسجد تلقيتَ من ربك نوراً على نور ، وزال

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك » أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٧٣) والدارمى فى سننه (١/٣٢٦) والترمذى فى سننه (١٣٢١) وقال : حسن غريب .

عن كاهلك الهمّ والغم وحلَّت مشاكلك من حيث لا تحتسب .

إذن : فالحق ـ تبارك وتعالى ـ جعل فى الفطرة الإيمانية أن تؤمن بإله ، فالإيمان أمر فطرى مهما حاول الإنسان إنكاره ، فالكافر الذى ينكر وجود الله ساعة يتعرَّض لأزمة لا منجاةَ منها بأسباب البشر تجده تلقائياً يتوجه إلى الله يقول : يا رب ، لا يمكن أن يكذبَ على نفسه فى هذه الحالة أو يُسلم نفسه ويبيعها رخيصة .

وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ[1] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. ⑧ ﴾ [الزمر]

ومن دقة الأداء القرآنى فى هذه المسألة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ⑨ ﴾ [الجمعة]

فذكر طرفاً واحداً من عملية التجارة وهو البيع ، ولم يقل : والشراء ، قالوا : لأنه حين يُمنع البيع يُمنع الشراء فى الوقت نفسه ؛ ولأن الإنسان يحرص على البيع لكن قد يشترى وهو كاره ، فشهوة الإنسان متعلقة بالبيع لا بالشراء ، لأن الشراء يحتاج منه إلى مال على خلاف البيع الذى يجلب له المال .

إذن : قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ⑨ ﴾ [الجمعة] إنما ذكر قمة حركة الحياة وخلاصتها ، فكل حركات الحياة من تجارة أو زراعة أو صناعة تنتهى إلى مسألة البيع ؛ لذلك يحزن البائع إذا لم يَبِعْ ، أما المشترى فيقول حين لا يجد الشىء أو يجد المحل مُغلَقاً : بركة يا جامع .

---

(١) خوَّله كذا : ملَّكه إياه متفضّلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] .

ثم إذا انتهتْ الصلاة يعيدنا من جديد إلى حركة الحياة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

كأنك ذهبتَ للمسجد لتأخذ شحنة إيمانية تعينك وتسيطر على كُلِّ حواسك فى حركتك فى التجارة ، وفى الإنتاج ، وفى الاستهلاك ، وفى كل ما ينفعك ويُنمى حياتك . وحين يأمرك ربك أن تفرغ لأداء الصلاة لا يريد من هذا الفراغ أن يُعطِّل لك حركة الحياة ، إنما ليعطيك الوقود اللازم لتصبح حركة حياتك على وَفْق ما أراده الله . وما أشبه هذا الوقت الذى نختزله من مصالح دنيانا فى عبادة الله بشحن بطارية الكهرباء ، فحين تذهب بالبطارية إلى جهاز الشحن لا نقول : إنك عطلت البطارية إنما زدتَ من صلاحيتها لأداء مهمتها وأخْذ خيرها .

فأنت تذهب إلى بيت الله بنور الإيمان ، وبنور الاستجابة لنداء : الله أكبر ، فتخرج بأنوار متعددة من فيوضات الله ؛ لذلك ضرب لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ مثلاً لهذا النور بالمصباح الذى يتنامى نوره ويتصاعد ؛ لأنه فى زجاجة تزيد من ضوئه ؛ لأنها مثل كوكب دُرىٍّ والنور يتصاعد ؛ لأنها بزيت زيتونة ، ويتصاعد لأنها شرقية وغربية فى آن واحد ، إذن : عندنا ألوان متعددة فى المثل ، فكذلك النور فى بيوت الله .

لذلك قال بعض العارفين : أهل الأرض ينظرون فى السماء نجوماً متلألئة ، والملائكة فى السماء ينظرون نجوماً متلألئة من بيوت الله ، ولا عجبَ فى ذلك لأنها أنوار الله تتلألأ وتتدفق فى بيته وفى مسجده ، وكيف نستبعد ذلك ونحن نرى نور الشمس كيف يفعل حينما ينعكس على سطح القمر فيُلقى إلينا بالضوء الذى نراه ؟ والشمس والقمر أثر من آثار نور الله الذى يَسْطع فى بيوت الله ، ألاَ يعطينا ذلك الإشعاع الذى يفوق إشعاع البدور ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ[1] لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) ﴾ [النور] فالمساجد جُعلَتْ لتسبيح الله ؛ لذلك كان بعض الصالحين إذا نزل بلداً يتحيل أن ينزلها في غير وقت الصلاة ، ثم يذهب إلى المسجد فإنْ وجده عامراً في غير وقت الصلاة بالمسبحين علم أن هؤلاء ملتزمون بمنهج الله ، حيث يجلسون قبل وقت الصلاة يُسبِّحون الله وينتظرون الصلاة ، وإنْ وجد الحال غير ذلك انصرف عنها وعلم أنها بلد لا خيرَ فيها[2] .

والغُدوُّ : يعني الصباح ، والآصال : يعني المساء ، فهي لا تخلو أبداً من ذكْر الله وتسبيحه ، وقد وصف هؤلاء الذين يعمرون بيوت الله بالذكر والتسبيح بأنهم :

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ[3] فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَـٰرُ (٣٧) ﴾

قلنا : إن التجارة هي قمة حركة الحياة ؛ لأنها واسطة بين منتج زارع أو صانع وبين مستهلك ، وهي تقتضي البيع والشراء ، وهما قمة التبادلات ، وهؤلاء الرجال لم تُلْههمْ التجارة عن ذكْر الله لأنهم عرفوا ما في الزمن المستقطع للصلاة من بركة تنثر في الزمن الباقي .

---

(١) هناك قراءة أخرى « يُسبَّح » قرأها عبد الله بن عامر وعاصم في رواية أبي بكر عنه والحسن . بفتح الباء على ما لم يُسمَّ فاعله . ذكره القرطبي في تفسيره (٦/٤٨١٢) .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٦/٤٨١٢) : « رأى سالم بن عبد الله أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة ، فقال : هؤلاء الذين أراد الله بقوله ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٣٧) ﴾ [النور] ثم قال : « اختلف العلماء في وصف الله تعالى المسبحين . فقيل : هم المراقبون أمر الله ، الطالبون رضاه ، الذين لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا » .

(٣) كناية عن الحيرة والفزع الشديد والبحث عن موضع للفرار من أهوال يوم القيامة . [القاموس القويم ٢/١٢٩] . وقيل : تتقلب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك ، والأبصار تنظر من أي ناحية يعطون كتبهم وإلى أي ناحية يؤخذ بهم [تفسير القرطبي ٦/٤٨١٧] .

أو نقول : إن التجارة لم تُلْههم عن ذكْر الله فى ذاتها ، فهُمْ حالَ تجارتهم لا يغفلون عن ذكر الله ، وقد كنا فى الصِّغَر نسمع فى الأسواق بين البائع والمشترى ، يقول أحدهما للآخر : وحِّد الله ، صَلِّ على النبى ، مدَّح النبى ، بالصلاة على النبى ، كل هذه العبارات انقرضت الآن من الأسواق والتعاملات التجارية وحَلَّ محلَّها قيم وعبارات أخرى تعتمد على العَرْض والإعلان ، بل الغش والتدليس . ولم نَعُدْ نسمع هذه العبارات ، حتى إذا لم يتم البيع كنت تسمع البائع يقول : كسبنا الصلاة على النبى ، فهى فى حَدِّ ذاتها مكسب حتى لو لم يتم البيع .

﴿ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ .. (٣٧) ﴾ [النور] الصلاة لأنها تأخذ وقتاً من العمل ، وكثيراً ما ينشغل المرء بعمله وتجارته عن إقامة الصلاة ظاناً أنها ستُضيِّع عليه الوقت ، وتُفوِّت عليه مصالح كثيرة ، وكذلك ينظر إلى الزكاة على أنها تنقص من ماله ، وهذه نظرة خاطئة حمقاء ؛ لأن الفلاح الذى يُخرِج من مخزنه أردباً من القمح ليزرع به أرضه : الأحمق يقول : المخزن نقص أردباً ، أما العاقل فيثق أن هذا الأردب سيتضاعف عند الحصاد أضعافاً مضاعفة .

أو : أن الله تعالى يفيض عليه من أنواره ، فيبارك له فى وقته ، وينجز من الأعمال فى الوقت المتبقى ما لا ينجزه تارك الصلاة ، أو : يرزقه بصفقة رابحة تأتيه فى دقائق ، ومن حيث لا يحتسب ، والبركة كما قلنا قد تكون سَلْباً وقد تكون إيجاباً ، وهذه كلها أنوار وتجليات يفيض الله بها على الملتزم بمنهجه .

ثم يقول سبحانه فى صفات هؤلاء الرجال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور] ذلك لأنهم يتاجرون لهدف أسمى

وأخلد ، فأهل الدنيا إنما يتاجرون لصيانة دنياهم ، أمَّا هؤلاء فيتاجرون مع الله تجارة لن تبور ، تجارة تصون الدنيا وتصون الآخرة .

وإذا قستَ زمن دنياك بزمن أُخْراك لوجدته هباء لا قيمةَ له ، كما أنه زمن مظنون لعمر مظنون ، لا تدرى متى يفاجئك فيه الموت ، أمّا الآخرة فحياة يقينية باقية دائمة ، وفى الدنيا يفوتك النعيم مهما حَلاً وطال ، أما الآخرة فنعيمها دائم لا ينقطع .

إذن : فَهُمْ يعملون للآخرة ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور] واليوم في ذاته لا يُخاف منه ، وإنما يُخَاف ما فيه ، كما يقول الطالب : خِفْت يوم الامتحان ، واليوم يوم عادى لا يخاف منه ، إنما يُخاف مما سيحدث فى هذا اليوم ، فالمراد : يخافون عذاب هذا اليوم .

ومعنى ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور] يعنى : رجفة القلب واضطراب حركته ، وما ينتابه من خفقان شديد ، ونحن نرى ما يصيب القلوب من ذلك لمجرد أحداث الدنيا ، فما بالك بهوْل الآخرة ، وما يحدث من اضطراب فى القلب ؟

كذلك تضطرب الأبصار وتتقلَّب هنا وهناك ؛ لأنها حين ترى الفزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وتنظر هنا علَّها ترى ما يُطمئنها أو يُخفِّف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر أشدَّ وأنكى .

لذلك ينتهي الموقف إلى : ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ .. (٤٣)﴾ [القلم] ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)﴾ [النازعات] يعنى : ذليلة منكسرة حيث لا مفرَّ ولا مَنْجى ، ولن يجد فى هذا اليوم راحة إلا مَنْ قدم له العمل الصالح كالتلميذ المجتهد الواثق من نفسه ومعلوماته،

يتلهف إلى ورقة الأسئلة ، أما الآخر فيقف حائراً لا يدرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

أى : فى هذا اليوم يجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ما شاء الله على رحمة الله !! لكن كيف بأسوأ ما عملوا ؟ هذه دَعْوها لرحمة الله ولمغفرته ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور] لأن الله تعالى لا يعاملنا فى الحسنات بالعدل ، ولا يجازينا عليها بالقسطاس المستقيم وعلى قَدْر ما نستحق ، إنما يزيدنا من فضله .

لذلك ورد فى الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان . فليس لنا نجاة إلا بهذا ، كما يقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور] والرزق : كُلُّ ما يُنتفع به ، وكل معنى فيه فوقية لك هو رزق ، فالصحة رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، والشجاعة رزق .. إلخ .

والبعض يظن أن الرزق يعنى المال ، وهذا خطأ ؛ لأن الرزق مجموعُ أمور كثيرة ، فإنْ كان رزقُك علماً فعلِّم الجاهل ، وإنْ كان رزقك قوةً فأعِن الضعيف ، وإنْ كان رزقك حلْماً فاصبر على السَّفيه ، وإن كان رزقك صنعة تجيدها ، فاصنع لأخرقَ لا يجيد شيئاً .

وإذن : هذا كله رزق ، وما دام ربك - عز وجل - يرزقك بغير حساب ، ويفيض عليك من فضله فأعْط المحتاجين ، وارزق أنت أيضاً

المعدمين ، واعلم أنك مُنَاول عن الله ، والرزق في الأصل من الله وقد تكفّل لعباده به ، وما أنت إلا يد الله الممدودة بالعطاء ، واعلم أنك ما دُمْتَ واسطة في العطاء ، فأنت تعطى من خزائن لا تنفد ، فلا تضنّ ولا تبخل ، فما عندكم ينفد وما عند الله بَاقٍ .

والحساب : أنْ تحسب ثمرة الأفعال : هذه تعطى كذا ، وهذا ينتج كذا ، يعني ميزانية ودراسة جدوى ، أمّا عطاء الله فيأتيك دون هذه الحسابات ، فأنت تحسب ؛ لأن وراءك مَنْ سيحاسبك ، أمّا ربك عز وجل فلا يحاسبه أحد ؛ لذلك يعطيك بلا عمل ودون أسباب ، ويعطيك بلا مُقدّمات ، ويعطيك وأنت لا تستحق ، ألاَ ترى مَنْ تتعثر قدمه فيجد تحتها كنزاً ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يلفت أنظار مَنْ شغلتهم الدنيا بحركتها ونشاطها عن المراد بالآخرة ، فيصنعون صنائع معروفٍ كثيرة ، لكن لم يُخلصوا فيها النية لله ، والأصل في عمل الخير أنْ يكون من الله ولله ، وسوف يُواجَه هؤلاء بهذه الحقيقة فيقال لأحدهم كما جاء في الحديث : « عملت ليقال وقد قيل »[1] .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) وأحمد في مسنده (٣٢٢/٢) والنسائي في سننه (٢٣/٦ ، ٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه : « إن أول الناس يُقْضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل . ثم أُمِر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى في النار » الحديث .

لقد مدحوك وأثنَوْا عليك ، وأقاموا لك التماثيل وخلَّدوا ذكْراك ؛ لذلك رسم لهم القرآن هذه الصورة : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩) ﴾ [النور]

﴿ أَعْمَالُهُمْ .. (٣٩) ﴾ [النور] أى : التى يظنونها خيراً ، وينتظرون ثوابها ، والسراب : ما يظهر فى الصحراء وقت الظهيرة ، كأنه ماء وليس كذلك . وهذه الظاهرة نتيجة انكسار الضوء ، و « قيعة » : جمع قاع وهى الأرض المستوية مثل جار وجيرة .

وأسند الفعل ﴿ يَحْسَبُهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] إلى الظمآن ؛ لأنه فى حاجة للماء ، وربما لو لم يكُنْ ظمآناً لما التفتَ إلى هذه الظاهرة ، فلظمئه يجرى خلف الماء ، لكنه لا يجد شيئاً ، وليت الأمر ينتهى عند خيبة المسعى إنما ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] فُوجِىء بإله لم يكُنْ على باله حينما فعل الخير ، إله لم يؤمن به ، والآن فقط يتنبه ، ويصحو من غَفْلته ، ويُفَاجأ بضياع عمله .

إذن : تجتمع عليه مصيبتان : مصيبة الظمأ الذى لم يجد له رِيّاً ، ومصيبة العذاب الذى ينتظره ، كما قال الشاعر[(١)] :

كَما أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ فَلمَّا رأوْهَا أقْشَعَتْ وتَجلَّت[(٢)]

وسبق أن ضربنا مثلاً لهذه المسألة بالسجين الذى بلغ منه العطش مبلغاً ، فطلب الماء ، فأتاه الحارس به حتى إذا جعله عند فيه

---

(١) هو : كثير بن عبد الرحمن أبو صخر الخزاعى ، يقال له « كثير عزة » وهى عزة بنت جميل الضمرية ، كان عفيفاً فى حبه لها ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة أكثر إقامته بمصر ، كان مفرط القصر دميماً فى نفسه شمم وترفع . توفى عام (١٠٥ هـ) الأعلام للزركلى (٥/٢١٩) .

(٢) ديوان كثير (ص ٢٠٧) وأورده شهاب الدين الحلبى (ت ٧٢٥ هـ) فى « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ص ١٢١ . وأقشعت الغمامة : انكشفت وذهبت .

واستشـرف المسكين للارتواء أراق الحارسُ الكوبَ ، ويُسـمُّون ذلك : يأسٌ بعد إطْماع .

لذلك الحق ـ تبارك وتعـالى ـ يعطينا فى الكون أمثلة تُزهِّد الناس فى العـمل للناس من أجل الناس ، فـالعـمل للناس لا بُدَّ أنْ يكون من أجل الله . وفى الواقع تصـادف مَنْ ينكر الجـميل ويتنكر لك بعـد أنْ أحسنْتَ إليـه ، وما ذلـك إلا لأنك عملتَ مـن أجله ، فوجـدت الجـزاء العادل لتـتأدب بعدها ولا تعـمل من أجل الناس ، ولو فعلتَ مـا فعلت من أجل الله لوجدتَ الجزاء والثواب من الله قـبل أنْ تنتهى من مباشرة هذا الفعل .

وفى موضع آخر يُشبِّه الحق سـبحانه الذى ينفق ماله رياء الناس بالحجر الأملس الذى لا ينتفع بالمـاء ، فلا ينبت شيئاً : ﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ(١) عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ(٢) فَتَرَكَهُ صَلْدًا(٣) لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

وقـوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور] فـإياك أنْ تستبـعد الموت أو البعث ، فـالزمن بعد الموت وإلى أن تقـوم الساعة زمنٌ لا يُحسَب لأنه يمرُّ عليك دون أن تشعر به ، كـما قال سبحانه : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

والله تعالى أخـفى الموت أسـباباً وميـعاداً ؛ لأن الإبهـام قد يكون غاية البيان ، وبإبهام الموت تظل ذاكراً له عاملاً للآخرة ؛ لأنك تتوقعه

---

(١) الصفوان : الحجر الأملس الذى لا يصلح للزراعة . [القاموس القويم ١ / ٣٨٠] .
(٢) الوابل : المطر الكثير القطر . والوبيل : الثقيل الغليظ جداً . [لسان العرب ـ مادة : وبل] .
(٣) الصلد : الحجر الصلب الأملس فلا يصلح لإنبات نبات . [القاموس القويم ١/٣٨١] .

فى أى لحظة ، فهو دائماً على بالك ، ومَنْ يدريك لعلّك إنْ خفضْتَ طرْفك لا ترفعه ، وعلى هذا فالحساب قريب وسريع ؛ لذلك قالوا : مَنْ مات فقد قامت قيامته[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا مَثَل آخر توضيحى لأعمال الذين كفروا ، والبحر اللجى : الواسع الكبير الذى تتلاطم فيه الأمواج ، بعضها فوق بعض ، وفوق هذا كله سحاب إذن : فالظلام مُطبق ؛ لأنه طبقات متتالية ، وفى أعماق بعيدة ، وقد بلغتْ هذه الظلمة حداً لا يرى الإنسان معها حتى يده التى هى جزء منه ، فما بالك بالأشياء الأخرى ؟

وقوله : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور] أى : لم يقرب من أنْ يراها ، وإذا نفى القُرْب من أن يرى فقد نفى الرؤية من باب أوْلَى ؛ ذلك لأنه ليس له نور من الله يرى به ويهتدى ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور] فكما أنه لم ينتفع بالنور ، ولم يرَ حتى يده ، كذلك لا ينتفع بشىء من عمله .

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنىً كدّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة ، فمن مات قامت قيامته » . وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (حديث ١١١٧) عن أنس رفعه بلفظ « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته فاعبدوا الله كأنكم ترونه واستغفروه كل ساعة » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ(١) كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) ﴾

يريد الحق - سبحانه وتعالى - أن يلفتنا إلى ما يدلّ على وحدة الخالق الأعلى ، وكمال قيوميته ، وكمال قدرته ، وذُكرَتْ هذه الآية بعد عدة أوامر ونواه ، وكأن ربك - عز وجل - يريد أنْ يُطمئنك على أن هذا الكون الذى خَلقه من أجلك وقبل أن تُولد ، بل ، وقبل أن يخلق الله آدم أعدَّ له هذا الكون ، وجعله فى استقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، يقول لك ربك : اطمئن فلن يخرج شىء من هذا الكون عن خدمتك فهو مُسخَّر لك ، ولن يأتى يوم يتمرّد فيه ، أو يعصى أوامر الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.. (٤١) ﴾ [النور]

﴿ أَلَمْ تَرَ.. (٤١) ﴾ [النور] يعني : ألم تعلم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل] ومعلوم أن النبى ﷺ وُلد عام الفيل ، ولم يَرَ هذه الحادثة ، فلماذا لم يخاطبه ربُّه بألم تعلم ويريح الناس الذين يتشكّكون فى الألفاظ ؟

قالوا : ليدلّك على أن ما يخبرك الله به - غيباً عنك - أوثقُ مما تخبرك به عينُك مشهداً لك ؛ لأن مصدر علمك هو الله ، ألاَ ترى أن النظر قد يصيبه مرض فتختل رؤيته ، كمن عنده عمى ألوان أو قِصَر

(١) صافات : مصطفات الأجنحة فى الهواء ، فهن باسطات الأجنحة . وقال سفيان : للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود . وقيل : إن ضربها بأجنحتها صلاة ، وإن أصواتها تسبيح . حكاه النقاش . [تفسير القرطبى ٦/ ٤٨٢٤] .

نظر .. إلخ إذن : فالنظر نفسه وهو أوثق شيء لديك قد يكذب عليك .

والتسبيح : هو التنزيه ، والتنزيه أن ترتفع بالمنزَّه عن مستوى ما يمكن أنْ يجولَ بخاطرك : فالله تعالى له وجود ، وأنت لك وجود ، لكن وجودَ الله ليس كوجودك ، الله له ذات وصفات ، لكن ليست كذاتك وصفاتك .. إلخ .

إذن : نزِّه ذات الله تعالى عن الذوات التي تعرفها ؛ لأنها ذوات وُهبَتْ الوجود ، أما ذات الله فغير موهوبة ، ذات الله ذاتية ، كذلك لك فعْل ، ولله تعالى فعْل .

وقد ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ۝١ ﴾ [الإسراء]

إن الذين اعترضوا على هذا الفعل اعترضوا بغباء ، فلم يُفرِّقوا بين فعْل الله وفعْل العبد ، فرسول الله ﷺ لم يقل : سريْتُ من مكة إلى بيت المقدس . إنما قال : أُسْرِي بي .

فالاعتراض على هذا فيه مغالطة ، فإنْ كنتم تضربون إليها أكباد الإبل شهراً ؛ فذلك لأن سَيْركم خاضع لقدرتكم وإمكاناتكم ، أمّا الله تعالى فيقول للشيء : كُنْ فيكون ، فلا يحتاج في فعْله سبحانه إلى زمن . فمن الأدب ألاَّ تقارن فعْل الله بفعلك ، ومن الأدب أنْ تُنزِّه الله عن كل مَا يخطر لك ببال ، نزِّه الله ذاتاً ، ونزِّهه صفاتاً ، ونزهه أفعالاً .

ألا ترى أن (سبحان) مصدر للتسبيح ، يدل على أن تنزيه الله ثابت له سبحانه قبل أن يخلق مَنْ ينزهه ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ۝١٨ ﴾ [آل عمران] فشهد الحق - تبارك وتعالى - لنفسه قبل أنْ تشهدوا ، وقبل أن تشهد الملائكة ، فهذه هي

شهادة الذات للذات . وقبل أن يخلق الله الإنسان المسبِّح سبَّح لله السموات والأرض ساعة خلقهما سبحانه وتعالى .

وحين تتتبع ألفاظ التسبيح فى القرآن الكريم تجدها جاءت مرة بصيغة الماضى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١)﴾ [الحديد] فهل سبّحَتْ السموات والأرض مرة واحدة ، فقالت : سبحان الله ثم سكتَتْ عن التسبيح ؟ لا إنما سبَّحَتْ فى الماضى ، ولا تزال تُسبِّح فى الحاضر : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١)﴾ [الجمعة]

وما دام أن الكون كله سبَّح لله ، وما يزال يُسبِّح فلم يَبْقَ إلا أنت يا ابن آدم : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى] يعنى : استح أن يكون الكون كله مُسبِّحاً وأنت غير مُسبِّح ، فصِلْ أنت تسبيحك بتسبيح كل هذه المخلوقات .

وعجيب أن نسمع من يقول أن (مَنْ) فى الآية للعاقل ، فهو الذى يُسبِّح أمّا السموات والأرض فلا دخلَ لهما فى هذه المسألة ، ونقول : لا دخلَ لها فى تصورك أنت ، أمّا الحقيقة فإنها مثلك تُسبِّح كما قال تعالى : ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾ [النور]

وقال : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. (١٣)﴾ [الرعد] فليس لك بعد كلام الله كلام .

وآخر يقول لك : التسبيح هنا ليس على الحقيقة ، إنما هو تسبيح دلالة وحال ، لا مقال ، يعنى : هذه المخلوقات تدلُّ بحالها على تسبيح الله وتنزيهه ، وأنه واحد لا شريك له ، على حد قول الشاعر :

وَفِى كُلِّ شَىء لَهُ آيَةٌ ... تدُلُّ على أنَّه الوَاحِدُ

وهذا القول مردود بقوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

إذن : فهذه المخلوقات تُسبِّح على الحقيقة ولها لسان ولغة ، لكنك لا تفهم عنها ولا تفقه لغاتها ، وهل فهمتَ أنت كل لغات بنى جنسك حتى تفهم لغات المخلوقات الأخرى ؟ إن العربى إذا لم يتعلم الإنجليزية مثلاً لا يستطيع أن يفهم منها شيئاً ، وهى لغة منطوقة مكتوبة ، ولها ألفاظ وكلمات وتراكيب مثل العربية .

إذن : لا تقُلْ تسبيحَ حال ، هو تسبيح مقال ، لكنك لا تفهمه ، وكل شىء له مقال ويعرف مقاله ، بدليل أن الله تعالى إنْ شاء أطلع بعض أهل الاصطفاء على هذه اللغات ، ففهمها كما فهم سليمان عليه السلام عن النملة ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩)﴾ [النمل] وسمع كلام الهدهد وفهم عنه ما يقول عن ملكة سبأ .

ونقول لأصحاب هذا الرأى : تأملوا الخلية المسدَّسة التى يصنعها النحل وما فيها من هندسة تتحدى أساطين الهندسة والمقاييس أن يصنعوا مثلها ، تأمَّلوا عش الطائر وكيف ينسج عيدان القش ، ويُدخل بعضها فى بعض ، ويجعل للعُشّ حافَّة تحمى الصغار ، فإذا وضعْتَ يدك فى العُشِّ وهو من القَشِّ وجدتَ له ملمسَ الحرير ، تأملوا خيوط العنكبوت وكيف يصطاد بها فرائسه ؟

لقد شاهدت فيلماً مصوراً يُسجِّل صراعاً بين دب وثور ، الدب رأى قرون الثور طويلة حادة ، وعلم أنها وسيلة الثور التى ستقضى عليه ، فما كان منه إلا أن هجم على الثور وأمسك قَرْنَيْه بيديه ، وظل ينهش رأس الثور بأسنانه حتى أثخنه جراحاً حتى سقط فراح يأكله .

إذن : كيف نستبعد أن يكون لهذه المخلوقات لغات تُسبِّح الله بها

لا يعرفها إلا بنو جنسها ، أو مَنْ أفاض الله عليه بعلمها ؟

ثم ألم يتعلَّم الإنسان من الغراب كيف يدفن الموتى لما قَتَل قابيلُ هابيلَ ؟ كما يقول سبحانه : ﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ** .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة] وكأن ربنا ـ عز وجل ـ يُعلِّمنا الأدب وعدم الغرور .

وقرأنا أن بعض الباحثين والدارسين لحياة النمل وجدوا أنه يُكوِّن مملكة متكاملة بلغت القمة فى النظام والتعاون ، فقد لاحظوا مجموعة تمرُّ هنا وهناك ، حتى وجدتْ قطعة من طعام فتركوها وانصرفوا ، حيث أتوا ، ثم جاءت بعدهم كوكبة من النمل التفتْ حول هذه القطعة وحملتْها إلى العُشِّ ، ثم قام الباحث بوضع قطعة أخرى ضِعْف الأولى ، فإذا بمجموعة الاستكشاف (أو الناضورجية) تمر عليها وتذهب دون أنْ تحاول حَمْلها ، وبعدها جاء جماعة من النمل ضِعْف الجماعة الأولى ، فكأن النمل يعرف الحجم والوزن والكتلة ويُجيد تقديرها .

وفى إحدى المرات لاحظ الباحث فتاتاً أبيض أمام عُشِّ النمل ، فلما فحصه وجده من جنين الحبة الذى يُكوِّن النبتة ، وقد اهتدى النمل إلى فصل هذا الجنين حتى لا تُنبت الحبة فتهدم عليهم العُشَّ ، لهذا الحد علَم النمل قانون صيانته ، وعلم كيف يحمى نفسه ، وهو من أصغر المخلوقات ، أبعد هذا كله نستبعد أن يكون للنمل أو لغيره لُغته الخاصة ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ **وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ** .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور] فلماذا خَصَّ الطير بالذكْر مع أنها داخلة فى ﴿ **مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور]

قالوا : خَصَّها لأن لها خصوصية أخرى وعجيبة ، يجب أن نلتفت إليها ؛ لأن الله تعالى يريد أنْ يجعل الطير مثلاً ونموذجاً لشيء أعظم ، فالطير كائن له وزن وثقل ، يخضع لقانون الجاذبية التى تجذب للأرض كُلَّ ثقل يعلَقُ فى الهواء .

لكن الحق - سبحانه وتعالى - يخرق هذا القانون للطير حين يصُفُّ أجنحته فى الهواء ، يظل مُعلَّقاً لا يسقط : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـٰنُ .. (١٩)﴾ [الملك]

وكأن الخالق - عز وجل يقول : خُذُوا من الطير المشاهد نموذجاً ووسيلة إيضاح ، فإذا قلتُ لكم : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٦٥)﴾ [الحج] فَصدِّقوا وآمنوا أن الله يُمسك السماء ، بل : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١)﴾ [فاطر]

فخُذْ من المشهد الذى تدركه دليلاً على ما لا تدركه .

لكن ، مَن الفاعل فى ﴿عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾ [النور] ؟

يمكن أن يكون الفاعل الطير وكل ما فى الوجود ، وأحسن منه أن نقول : علم الله صلاتها وتسبيحها ؛ لأنه سبحانه خالقها وهاديها إلى هذا التسبيح[1] . إذن : فكل ما فى الوجود يعلم صلاته ويعلم تسبيحه ، كما تعلم أنت المنهج ، لكنه استقام على منهجه لأنه مُسخَّر وانحرفت أنت لأنك مُخيَّر .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٢٤) : « يجوز أن يكون المعنى : كل قد علم الله صلاته وتسبيحه ، أى : علم صلاة المصلى وتسبيح المسبِّح ؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)﴾ [النور] أى : لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم . وقد قيل : المعنى : قد علم كل مُصلٍّ ومسبِّح صلاة نفسه وتسبيحه الذى كلفه » .

فإنْ أردتَ أنْ تستقيمَ أمور حياتك فطبِّق منهج الله كما جاءك ؛ لذلك لا تجد فى الكون خللاً أبداً إلا فى منطقة الاختيار عند الإنسان ، كل شىء لا دخْلَ للإنسان فيه يسير منتظماً ، فالشمس لم تعترض فى يوم من الأيام ولم تتخلف ، كذلك القمر والنجوم والهواء ، إنها منضبطة غاية الانضباط ، حتى إن الناس يضبطون عليها حساباتهم ومواعيدهم واتجاهاتهم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] يعنى : بحساب دقيق ، وما كان للشمس أنْ تضبط الوقت إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) ﴾ [النور] أى : لقيوميته تعالى على خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) ﴾

يريد ربك - عز وجل - أنْ يُطمئنك أن الذى كلَّفك بما كلَّفك به يضمن لك مُقوِّمات حياتك ، فلن ينقطع عنك الهواء فى يوم من الأيام ، ولن تتأبَّى عليك الشمس أو القمر أو الأرض ؛ لأنها ملْك لله ، لا يشاركه سبحانه فى ملكيتها أحد يمنعها عنك ، فاطمئن إلى أنها ستؤدى مهمتها فى خدمتك إلى يوم القيامة ، ولا تشغل نفسك بها ، فقد ضمنها الله .